المؤرخ أبو القاسم سعد الله و تاريخ الحركة الوطنية الجزائرية من الكتابة إلي التنظير

د. جيلالي بلوفة عبد القادر

جامعة تلمسان

ولد أبو القاسم سعد الله سنة 1930 بضواحي قمار بولاية الوادي. حفظ القرآن الكريم وتلقى العلوم من لغة وفقه ودين بمسقط رأسه [1]، ثم انتقل للدراسة في جامع الزيتونة – تونس- من 1947 إلى 1954؛ وفي هذه الفترة بدأ يكتب في صحيفة البصائر لسان حال جمعية العلماء المسلمين الجزائريين تحت إسم مستعار هو "الناقد الصغير"، وتحصل على شهادة الماجستير في الآداب من كلية الآداب والعلوم الانسانية بجامعة القاهرة سنة 1960[2]. وفي نفس الفترة أصبح مسؤولا عن مكتب الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية بالقاهرة[3].

وأنهى دراساته العليا في التاريخ المعاصر بحصوله على الدكتوراه من جامعة مينيسوتا الأمريكية عام 1965[4]، وبها ساهم أبو القاسم سعد الله في تأسيس جمعية الطلبة الأفارقة، وانتقل إلى التدريس بجامعة ويسكونسين الأمريكية، ثم إلى جامعة الجزائر...[5].

اهتم بالأدب ونظم الشعر، وكتب ديوانا سماه "الزمن الأخضر"، وقد قال عنه محمود أمين:"... هو زهرة تفتحت في حقول الوعي والنضال... واستلهمت أفضل ما فيه من معان وقيم وفضائل..".

إضافة إلى الأدب واللغة العربية، أتقن اللغة الفرنسية والانجليزية، ودرس الفارسية والألمانية، وقد كان متفتحا على كل الثقافات العالمية المعاصرة بمختلف

تياراتها وأفكارها ومناهجها من يسارية ويمينية دون أن يدعو لها، ويجرفه تيار من هذه التيارات العالمية...[6]، ونظرا لمساهمته في الثورة الجزائرية منح وسام المقاوم من قبل رئيس الجمهورية الجزائرية الشاذلي بن جديد، وهذا بمناسبة الذكرى الخامسة والعشرين لاستقلال الجزائر في 05 جويلية 1987.

توفي شيخ المؤرخين الجزائريين الأستاذ أبو القاسم سعد الله يوم 14 ديسمبر 2013 عن عمر يناهز 83 سنة، تاركا وراءه العديد من المؤلفات في تخصصات مختلفة من الأدب والشعر والنقد الأدبي والتاريخ.

و حسب أبو القاسم سعد الله في إحدى حواراته، أن هذا التحول في حياته العلمية من الشعر إلى النقد الأدبي إلى التاريخ والفكر كان تحولا تدريجيا وطبيعيا وهذا نظرا لخلفيات نفسية واجتماعية وبيئية وتاريخية، جعلت من هذا التنقل طبيعي، بل ربما حتمي[7].

يمكن تصنيف الانتاج العلمي المتنوع، سواء منه المكتوب والمدون أو الذي ساهم فيه عن طريق مشاركاته العلمية في الملتقيات والمؤتمرات الوطنية والدولية خاصة في مجال التاريخ، والذي تجسد في مؤلفات أو كتب محققة أو مترجمة؛ علما بأن تركيز المؤرخ أبو القاسم سعد الله كان منصبا على تاريخ الجزائر المعاصر، خاصة منه تاريخ الحركة الوطنية الجزائرية، بمختلف مظاهرها وأشكالها ومجالاتها.

1- <u>الانتاج العلمي للمؤرخ أبي القاسم سعد الله:</u>

تبعا لنوعية المؤلفات العلمية التي تركها أبو القاسم سعد الله يمكن تصنيفها إلى كتب محققة، ومترجمة وأخرى من تأليفه وفيما يلي نتعرض بالوصف لأهم هذه المؤلفات حسب نوعيتها وتسلسل تأليفها.

أ- <u>الكتب المؤلفة:</u>

منطلقات فكرية، ط2، الدار العربية للكتاب، تونس، ليبيا، 1982.
محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث (بداية الاحتلال)، ط1، مصر، 1970، ط3، الجزائر، 1982.
الطبيب الرحالة ابن لادوش، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1982.
القاضي الأديب الشادلي الفلسطيني، ط2، الجزائر، 1982.
شاعر الجزائر، محمد العيد آل خليفة –عدة طبعات- مصر، تونس وليبيا، آخرها في 1984، الدار العربية للكتاب.
دراسات في الأدب الجزائري الحديث، (عدة طبعات)، أولها في دار الآداب، بيروت، 1966، وآخرها الدار التونسية للنشر، 1985.
الزمن الأخضر، ديوان سعد الله، لمؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985.
تجارب في الأدب والرحلة، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986.
شيخ الإسلام، داعية السلفية: عبد الكريم العكون، دار الغرب الاسلامي، بيروت، 1986.
سعفة خضراء (قصص)، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986.
أفكار جامحة، الجزائر، 1988.
قضايا شائكة، دار الغرب الاسلامي، بيروت، 1989.
رائد التجديد الإسلامي: ابن العنابي، دار الغرب الاسلامي، بيروت، 1990.
الحركة الوطنية الجزائرية (3 أجزاء)، صدر الأول منها في 1969، وصدرت الأجزاء الأخرى في 1992، و1997 في دار الغرب الاسلامي، بيروت.
أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر (4 أجزاء)، آخرها في 1993، و1996، عهن دار الغرب الجزائري، بيروت.
في الجدل الثقافي، دار المعرفة، تونس، 1993.

هموم حضارية، دار الأمة، الجزائر، 1993.
تاريخ الجزائر الثقافي (09 أجزاء)، دار الغرب الاسلامي، بيروت، 1998.
خلاصة تاريخ الجزائر- المقاومة والتحرير 1830-1962، دار الغرب الاسلامي، بيروت، 2007.

ب- **الكتب المحققة:**

حكاية العشاق في الحب والاشتياق، تأليف مصطفى بن إبراهيم باشا، ط2، الجزائر، 1982.
رحلة بن حمادوش (لسان المقال)، تأليف عبد الرزاق بن حمادوش، المكتبة الوطنية، الجزائر، 1982.
منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية، تأليف عبد الكريم الفكون، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1987.
مختارات من الشعر العربي، جمع المفتي أحمد بن عمار، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1991.
تاريخ العدواني، تأليف محمد بن عمر العدواني، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1996.

ج- **الكتب المترجمة:**

حياة الأمير عبد القادر، تأليف هنري تشرتشلCH.H.Churchill، ط2، الجزائر، 1982 (The Life Of Abdelkader)
شعوب وقوميات، 1985(Peoples and Nationalismes)
الجزائر وأوربا، تأليف جون .ب. وولف John .B.Wolf، الجزائر، 1986.

الجزائر في العهد العثماني (Algiers Unders The Turks)

إضافة إلى العديد من الدراسات الأخرى والمقالات المنشورة في الدوريات المحكمة...

من خلال ما سبق، وفي وصف "الانتاج العلمي" من تأليف وترجمة وتحقيق للكتب، خاصة فيما يتعلق بمادة تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر، يمكن ملاحظة تنوع الانتاج وتركيزه على تاريخ الحركة الوطنية بمختلف جوانبها التاريخية وتياراتها السياسية والإيديولوجية وانتماءاتها الفكرية، مع ملاحظة تنقل المؤرخ سعد الله من الكتابة في التاريخ السياسي العام للحركة الوطنية الجزائرية إلى التاريخ الثقافي.

2- **تاريخ الحركة الوطنية الجزائرية من الكتابة إلى التنظير:**

أنجز أبو القاسم سعد الله دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر للجزائر في موضوع الحركة الوطنية الجزائرية 1900-1930، باللغة الانجليزية سنة 1965.

وفي وصفه أسباب إختيار موضوع أطروحته أكد على أن السبب الأساسي يرجع إلى احتكار الفرنسيين منذ أكثر من قرن لكتابة وتفسير تاريخ الجزائر، ونظرا لعدم وجود أية دراسة جادة للحركة الوطنية.[8]

أما فيما يخص اخياره للإطار الزماني للموضوع المحصور بين 1900 و1930 فيعود إلى كون الكتابة في هذه المرحلة من تاريخ الحركة الوطنية جديدة وحاسمة، وانتهت تاريخيا بظهور الاتجاه الانفصالي الذي رفض كل مساومة مع الفرنسيين.[9]

اعتمد "الباحث" في إنجاز الأطروحة على التأكيد بأن "الحركة الوطنية الجزائرية" هي كل شامل ومتكامل بمظاهره السياسية، الثقافية، الاجتماعية،

الاقتصادية والعسكرية، وعلى تبيان العلاقة الجدلية بين السياسة الاستعمارية الفرنسية خلال الفترة المدروسة من جهة، ورد الفعل الوطني اتجاهها من جهة أخرى.

إضافة إلى ما سبق بين الباحث علاقة الحركة الوطنية الجزائرية بالإديولوجيات المختلفة والقوى المعاصرة في العالم (الجامعة الاسلامية، الشيوعية، الديمقراطية، القومية العربية...)، وفي هذا الصدد أكد على أن الحركة الوطنية الجزائرية إعتمدت على ذاتها من أجل بلوغ أهدافها، وأن هذه الإديولوجيات العالمية لم تقدم مساعدات ملموسة وواقعية وإجابية للحركة الوطنية.

ومن خلال هذه الأطروحة، توصل أبو القاسم سعد الله إلى عدة استنتاجات أصبحت حقائق تاريخية ثابتة، أخد بها الباحثون والمختصون في هذا الميدان، ومنها ما يلي:

*إن فترة (1900-1930) في الجزائر هي حاسمة في مصير النضال السياسي، حيث ظهر فيها تمردات عسكرية وإضطرابات سياسية ونشاطات ثقافية.

*لم تكن الوطنية الجزائرية وليدة الاحتلال الفرنسي للجزائر، بل هي قديمة تضرب في اعماق وأصالة الشعب الجزائري إلا أن الاحتلال أدى إلى إيقاض الشعور الوطني بضرورة مقاومته وبالتالي ساهم في تقوية الشعور الوطني وتأصيله وتنامي الحركة الوطنية.

*نظرا لرد فعل الاحتلال الفرنسي وسياسته في الجزائر وقد أدى هذا إلى إضعاف الحركة الوطنية الجزائرية لفترة ما، لتظهر مرة أخرى في آواخر القرن 19، بملامح جديدة أدت في المستقبل مع مطلع القرن 20 إلى بروز التيارات السياسية الوطنية المتنوعة.

*لقد خرق الاستعمار الفرنسي الاتفاق المبرم في 1830، عن طريق إصداره لقوانين عديدة ، مثل إلحاق الجزائر بفرنسا 1834، وقانون مجلس الشيوخ (Senatus- consulte) 1865 وقانون الأهالي (Code de l'indigenat) 1881، وإنشاء المحاكم الردعية 1902، والتجنيد الإجباري 1912.

*في المقابل، كان الحكم الفرنسي في الجزائر مبني على إضطهاد عامة الشعب الجزائري، مقابل منح امتيازات للمعمرين الفرنسيين والأجانب (الكولون) [10].

*يمكن تفسير مقاومة الجزائريين للإندماج بمحافظتهم على قوانينهم الشخصية، على أنه "موقف وطني إيجابي".

*إن غياب قوة أجنبية منافسة لفرنسا في الجزائر (مقاطعة فرنسية حسب الدستور الفرنسي 1834) أدى إلى تكريس عزلة الحركة الوطنية الجزائرية وعدم تلقيها مساعدات خارجية منذ بداية الاحتلال.

*لم تكن الثقافة الفرنسية في الجزائر مصدر انعاش وترقية للثقافة الوطنية، بل على العكس، لقد تسبب ذلك في إضطهادها[11].

إضافة إلى ما سبق فالكتابة عند أبي القاسم سعد الله في مجال "الحركة الوطنية"، حقق من وراءها عدة استنتاجات، ومنها:

إن الطرق الصوفية لعبت دورا رئيسيا في الدفاع عن الملة الإسلامية وأن الاستعمار وحدنا بالجهل..[12]، وكنا أقرب إلى بلوغ وحدتنا في إطارها المغاربي رغم وجودنا تحت سيطرة الاحتلال والاستعمار، وأصبح هذا صعبا وغير ميسور رغم تحقيقنا الاستقلال.[13]

3- أبو القاسم سعد الله وتاريخ الحركة الوطنية الجزائرية:

يرى أبو القاسم سعد الله بأنه على الدارس للتاريخ أن يخضع لمجموعة من الشروط، ومنها توفير الحرية في البحث والاستنتاج والنشر، وتميزه بتقبل النقد، ووجوب توفر وسائل البحث، والتفرغ والتفكير في التأليف قصد إنتاج عمل ناجح، يكون له الأثر البالغ في التأريخ للجزائر، علما بأنه لا يمكن للمؤرخ أن يرضي جميع الأطراف.[14]

وفي هذا الصدد، صرح أبو القاسم سعد الله في الجزء الأول من تاريخ الجزائر الثقافي بأن الهدف من البحث هو إنجاز عمل يكشف من ورائه عن مساهمة الجزائر في الثقافة العربية الإسلامية والإنسانية عبر العصور [15] بنظرة وصفية للأحداث ومجرياتها وبحوصلة فلسفية تفسر طابع الثقافة الجزائرية تفسيرا نقديا بعيدا عن "إخضاع الأحداث لنظرة خاصة ضيقة تثير حفيظة المخالفين"[16].

انتقل أبو القاسم سعد الله في مجال كتابة تاريخ الجزائر المعاصر نقلة نوعية وهذا بعد تأليفه تاريخ الجزائر الثقافي بأجزاءه التسع الذي يعتبر دراسة جديدة وشاملة لكل مظاهر الثقافة عبر قدم العصور التاريخية في الجزائر.

إضافة إلى هذا، فإن كتاب "خلاصة تاريخ الجزائر- المقاومة والتحرير 1830-1962، دار الغرب الاسلامي، بيروت، 2007، 214ص" هو دراسة وحوصلة تنظيرية لأفكار وآراء المؤرخ أبي القاسم سعد الله في وصف وتحليل مظاهر تاريخية متعلقة بالمقاومة والتحرير.

خاتمة:

أشار أبو القاسم سعد الله في إحدى حواراته بأنه "رجل قدري"، حفظ القرآن الكريم، مثل خاله العالم... واعتبر نفسه صاحب مهمة هي خدمة العلم الشريف والدراسة والبحث... انطلاقا من ثراء الانتاج العلمي والفكري للمؤرخ أبو

القاسم سعد الله في تاريخ الحركة الوطنية الجزائرية وتنوعه، يمكن القول بأنه ساهم في كتابة هذا التاريخ كتابة علمية تطورت من مجرد التأليف وترقت ونمت إلى درجة ومستوى التنظير[17]؛ يرى أبو القاسم سعد الله بأن الكتابة التاريخية في الجزائر رغم تنوعها وجديتها حاليا، لا يمكن الجزم بوجود مدرسة تاريخية قائمة بذاتها، بل هي عبارة عن أقلام وأسماء بادرت وساهمت في الكتابة.

وكان من بين آماله ومشاريعه المستقبلية: إصدار مذكراته والكتابة في "التاريخ الفكري للمغرب العربي منذ الفتح الاسلامي" إلا أنه وافته المنية قبل بلوغ وتحقيق هذا المشروع.

الهوامش:

1) أبو القاسم سعد الله، في الجهاد الثقافي، منطلقات فكرية، ط2، الدار العربية للكتاب، ليبيا- تونس،1982، ص34.

2) أبو القاسم سعد الله، قضايا شائكة- أحاديث في شؤون الفكر والأدب والتاريخ، دار الغرب الاسلامي، بيروت، 1989، ص35.

3) محمد برغام، خلال تأبينية المؤرخ أبي القاسم سعد الله، قناة الشروق التلفزيونية، 20132/12/24، على الساعة 18:25.

4) أنجز أبو القاسم سعد الله أطروحة الدكتوراه حول الحركة الوطنية الجزائرية- 1900-1930، باللغة الانجليزية، وترجمت إلى اللغة العربية، ونشرت في المجاهد الجزائرية ع:300 ليوم 1967/02/19، وفي مجلة تاريخ وحضارة المغرب، ع:4 (يناير 1968).

5) أبو القاسم سعد الله، قضايا شائكة..، ص09.

6) الطيب برغوت، هكذا يكون المجد حقا... كلمة وداع للدكتور أبو القاسم سعد الله، الشوق اليومي، ع: 4238، الجزائر، 2013/12/27، ص13.

7) ينظر إلى حوار مع المؤرخ سعد الله أبوالقاسم، مجلة الحوار الفكري، مخبر الدارسات الفكرية والفلسفية، جامعة قسنطينة، ع:6، سبتمبر، 2004، ص15.

8) أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ج1، ط3، دار الغرب الاسلامي، بيروت، 1990،ص55.

9) أبو القاسم سعد الله، نفس المرجع، ص55.

10) نفسه، ص56-57.

11) نفسه، ص58.

12) مراد وزناجي، حديث صريح مع أ.د. أبو القاسم سعد الله في الفكر والثقافة واللغة والتاريخ، ط2، منشورات الحبر، الجزائر، 2010، ص162-165.

13) حوار مع عميد المؤرخين الجزائريين أ.د.أبو القاسم سعد الله، مجلة الحوار الفكري، جامعة قسنطينة، سبتمبر، 2004، ص21.

14) أبو القاسم سعد الله، قضايا شائكة – أحاديث في شؤون الفكر والأدب والتاريخ، دار الغرب الاسلامي، بيروت، 1986، ص11-12.

15) أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي (1500-1830)، ج1، ط1، دار البصائر، الجزائر، 2007، ص23.

16) سعيدوني ناصر الدين، دراسات وشهادات مهداة إلى الأستاذ الدكتور أبو القاسم سعد الله، 200، ص583.

17) حوار مع عميد المؤرخين الجزائريين، مجلة الحوار الفكري...، ص16-17.